

## ٩. السلوك المسئول

كيف نتصور الطبيعة؟ الإجابة عن هذا السؤال هي التي تحدد ما نعتبره موقفاً مسئولاً بإزاء العالم الطبيعي. فإذا تصورنا الطبيعة بوصفها سحرية أو ساحرة فاتنة، كل شجرة تقطنها حورية وكل ينبوع يسكنه جنى فإن الموقف بإزائها يبحث عن استعطافها واسترضائها. وإذا تصورناها كخشية لمسرح الدراما الإنسانية فإن الموقف منها لامبالٍ يعنيه تحقيق أهداف موضوعية جزئية. وإذا اعتبرنا الطبيعة هي الرحم الذي تخلق عنه ميلادنا التطوري سنشعر بإزاءها بأواصر القربى الحميمة...

أما وقد اعتبرنا الطبيعة خلقاً إلهياً فإن الموقف المسئول منها هو احترامها وصورها والحفاظ عليها بوصفها هبة من لدن الله.

وفي هذا الفصل المكرس للسلوك الأخلاقي المسئول، يحاول بولكين هورن أن يلقي أسساً لأصول الموقف المسئول بإزاء الطبيعة. وسوف نلاحظ كيف ينحو نحو جعلها أسساً دينية.

### الاستغلال :

بدايةً، نلاحظ أن المسيحية مدانة بتأجيج نيران التعامل الاستغلالي المدمر مع الطبيعة. ولكن كانت الأنظمة الإلحادية في شرق أوروبا وفي الاتحاد السوفيتي السابق قد ساهمت بنصيب وافر في تلوث مريع وتدمير للبيئة، إلا أنه لابد من الاعتراف بأن المسيحية رآها البعض سندا له في هذا الموقف الاستغلالي، لأن تياراً قوياً فيها أقر بأن الطبيعة بعجمواتها من حيوان وطير مخلوقة فقط من أجل الإنسان وراحته وتلبية احتياجاته، وهو تيار قواه ونماته ديكرات حين أقر بأن الحيوانات محض آلات حية من أجل مصالح الإنسان.

وفي الرد على هذا يتمسك بولكين هورن بان المسيحية وسط ذهبي، وقفت في مواجهة النظر إلى العالم المادى بوصفه شراً مستطيراً محضاً كما ذهب الديانة المانوية، ولم تعتبر البشر محض كائنات روحانية تبحث عن الخلاص من أسر الجسد كما فعلت الغنوصية. إنها ديانة التجسيد، حيث تجسدت كلمة الرب وسكنت لحم المسيح ودمه، مما يعنى أنها ديانة تحمل عميق الاحترام للمادة وللعالم الفيزيقي.

### العناية بالخلق :

لذا، لانددهش لأن ثمة تقليداً مسيحياً آخر يعبر عن قيمة العالم الطبيعي ويدعو لاحترامه والرفق بكائناته تحمله أبيات في «نشيد الأنشاد» وآيات في «سفر التكوين». إنه تيار يرى البشر ممثلين في مسرحية الخلق الكبرى، نشأوا عن تراب الطبيعة وإليه يعودون؛ مما يعنى موقفاً من الطبيعة يجعل الإنسان متشاركاً معها ملزماً بالعناية بها

وبقائنها من حيوان وطير، أليست خلقاً لله؟!؟

والآن نسلم جميعاً بالحاجة إلى كبح جماحنا لتعامل مع الطبيعة برفق وعناية؛ حتى أن مارجريت ثاتشر وهي النصارى المتحمس للملكية الخاصة والمبادرات الفردية كانت تذكرنا دائماً بأنه ليس فى حوزتنا عقد ملكية للعالم الطبيعى بل فقط عقد إيجار أو حق انتفاع متجدد . وهذا مايجعل الدول الآن تسنّ قوانين المحافظة على البيئـة والمحـميات الطبيعية، أو مثلاً قوانين تمنع الصيد فى مواسم التزاوج والتناسل أو إطلاق النار على طير يرقد على بيضه . .

كل هذه قيم تتأنى تلقائياً فى الموقف من الطبيعة بوصفها خلقاً لله .

على أن الطبيعة واقع مركب ومعقد، وتفهمنا لعلاقتنا بها يجب أن يكون هو الآخر مركباً ومتعدد الأبعاد . إذ يتربص بنا أعداء من الطبيعة يجب مكافحتهم وأحياناً قهرهم تماماً . لا أحد يتصور - مثلاً - أن مكافحة فيروس الجدرى والعمل على استئصال شافته من خلال برنامج عالمى للتطعيم يمكن أن يكون خطأً .

فلا ينبغى أن ننساق فى الرفق بالطبيعة إلى غير حدود، ونتصور أن حقوق الحيوان مكافئة لحقوق الإنسان فى الحياة، كما يذهب بعض المتطرفين الذين لا تملك إلا أن نسألهم وماذا عن حقوق الديدان والنمل؟! كيف نزعـم أن حقوق الحيوان مكافئة لحقوق الإنسان، وليس عليه ما على الإنسان من واجبات والتزامات، ومهما وقف علم النفس على قدرات وإمكانيات وانفعالات مبدئية للحيوان، سوف يظل الإنسان دائماً كائناً فريداً ومتميزاً بعوامل عديدة على رأسها الوعى والالتزام الخلقى .

أجل! ينبغى الرفق بالحيوان، لكن لايعنى هذا البتة أن وجوده مكافئ لوجود الكائن الأخرى / الإنسان .

فى السنوات الأخيرة يرعى مجلس الكنائس العالمى برنامجاً للمناقشات المطولة وأحياناً العمل الإيجابى تحت عنوان «العدالة والسلام وتكامل الخلق»، الذى يضم حتماً أبعاد الإشكالية المعضلة . العدالة تعنى أن يتشارك الناس جميعاً بكل أنحاء العالم فى موارده، والسلام يرتكز على هذه العدالة فى التوزيع . لكن استغلال الموارد بالنسبة للشعوب الفقيرة فى الغابات الاستوائية يعنى حرق أخشاب الأشجار الثمينة كوقود أو إهدار الغابات بتحويلها إلى أراضٍ زراعية، وهذا يعنى تبيد موارده الطبيعية وضرورية للتوازن البيئى على كوكب الأرض . الحق الصراح أن سد احتياجاتهم على المدى الطويل يتطلب أنظـمة اقتصادية عالمية أكثر عدلاً تضم الشمال والجنوب، الدول الغنية والفقيرة، بيد أن النزاع والعقبات السياسية تحول دون هذا . إن العدالة والتوازن البيئى

## حقوق الحيوان :

## نمط الحياة المتساندة :

يتطلب تضحية من الدول الغنية فى أوروبا وأمريكا الشمالية، ولايكفى أن نتحدث - دون فعل - عن حقوق الآخرين فى الحياة . ولعل أحزاب «الخضر» التى تجعل الحفاظ على البيئة العالمية هدفها الأول تستحق التحية .

## تكامل الخلق :

ليس تكامل الحق مجرد شعار . لكن كيف يصبح ممكناً فى العالم التطورى؟ لاينبغى النظر إلى الطبيعة فقط من خلال المنظور الإنسانى ، بل يجب أن ننظر إليها أيضاً فى حد ذاتها، فى غيريتها، كآخر .

إن الخسائر الوراثية والحيوية لاتقلقنا إلا حين تهدد بعض أشكال الحياة بالانقراض . بيد أن أزمة الانقراض تعنى أيضاً تخلق أنواع جديدة من الحياة كواقعة معروفة فى التاريخ التطورى، فلولا انقراض الديناصورات لما قدرت الغلبة للثدييات . وطبعاً الأزمنة التى تشهد انقراضاً وتخلقاً طويلة المدى، أوسع كثيراً من مجال الذاكرة الإنسانية . أما فى مجالنا وواقعنا فإننا نشهد انقراض أنواع من الحياة بمعدل يزيد عشرة آلاف ضعف عن المعدل الطبيعى الذى كان للانقراض والفقدان الطبيعى لأشكال من الحياة . فلايمكن الآن أن نكتفى بالنضال من أجل الحفاظ على الواقع الطبيعى كما هو .

ينبغى على كل تصرف إنسانى أن يحافظ على الطريقة الطبيعية التى يعيش بها الحيوان حياته، لا أن يمثل عائقاً أو إحباطاً أو تبديلاً جوهرياً لها كما تفعل المزارع وأساليب التصنيع الحديثة، وأحياناً بصورة غير مقبولة إطلاقاً . ليس من الضرورى أن يدفع الحيوان ثمناً باهظاً لكى يتم تداول الطعام فى الأسواق بأسعار رخيصة .

ويشير بولكين هورن إلى أن علاقاتنا بالحيوانات ليس جميعها من النمط نفسه . فنحن نكن إغرازاً خاصاً للحيوانات المنزلية . وهناك أشكال طبيعية متعارف عليها للصيد . إما من أجل الفراء، أو من أجل استبعاد الحيوانات المفترسة أو على سبيل الهواية والشغف بالمطاردة . وبالطبع يجب تجنب أى معاناة للحيوانات لاضرورة لها، وهذه مسألة، المتمرسون أدري بأصولها من أبناء المدينة الذين يقطعون الملل برحلة صي- فى البرارى .

ويقول بولكين إنه متأثر فى هذا بأخلاقيات جده لأمه الذى كان فارساً ومروضاً محترفاً للخيل، ذا قدرة عميقة على تفهم الحيوان والإحساس به، سواء الجواد الذى يمتطيه أو الذئب الذى يصطاده . ويعيد التنبيه على أننا لاينبغى أن نكون عاطفيين أكثر مما يجب أو بصورة مطلقة فى تعاملنا مع الطبيعة، فبعض أنواع الحيوان تقتضى تشدداً أو معاملة من نوع آخر لأغراض إنسانية سامية أو حيوية .

فمن القبول تماماً استخدام الحيوانات للتجارب والأبحاث الطبية، على شرط إتباع

قواعد صارمة تحول دون تكييدها آلاماً ومعاناة لاداعٍ لها. وفي كل حال يجب أن يكون البحث مستحقاً لهذا استخدام حيوان لاختبار مضاد حيوى جديد شىء، واستخدامه للكشف الروتينى على فعاليات مستحضر تجميل شىء آخر.

إننا نحدد علاقتنا بالحيوان على أساس النوع وليس الفرد. ربما باستثناء الحيوانات المنزلية.

## البيئة :

والآن ينبغي أن نرفع أعيننا لنستشرق منظوراً أرحب وهو علاقة الإنسان بالبيئة ككل متكامل. فمنذ أن بدأت الحضارة وضغوط البشر مستمرة وتأثيرهم متوالية على الوسط الطبيعى المحيط بهم. فقد شكلت أيدي البشر المشهد الطبيعى بأسره فى بريطانيا- مثلاً، ولم يعد بها مكان واحد لم تمسه يد الإنسان، ربما لاتزال توجد أمثال هذه الأماكن البكر فى مناطق أخرى من العالم، ولكن ليس فى بريطانيا. لا يعنى هذا أننا لايمكن أن نواجه فيها الطبيعة، لكنها طبيعة «الحديقة أو البستان».

إن انتهاك الإنسان للطبيعة البكر بل وتخریبها يحدث على نطاق واسع منذ قديم الزمان، هكذا فعل الرومان فى شمال أفريقيا. والذى استجد فى الأوقات الراهنة أن هذا يحدث على مجال يترك تأثيره على بيعة كوكب الأرض ككل، ليس على أماكن محددة فيها، من قبيل رفع درجة حرارة كوكب الأرض، أو تدمير طبقة الأوزون وكل ثقب فيها يعرض بشرة الإنسان لامتصاص أشعة ضارة تسبب أمراضاً خطيرة. أمثال هذه التغيرات الكوكبية الواسعة النطاق، قد لانلاحظها أو نلاحظ تأثيراتها، وإذا لوحظت فإنها تتطلب عملاً شاقاً يستغرق مدة طويلة من الزمن، لكى نواجهها ونواجه آثارها الضارة.

## التزايد السكانى :

يؤكد بولكين هورن أن مشكلة التزايد السكانى أعظم المشاكل، وعنها تتمخض - بشكل أو بآخر - كل المشاكل البيئية الأخرى. لقد أصبحنا نتزاحم ونتصارع من أجل موطن قدم فى الأرض، ولم يعد ثمة مكان بكر نرسل إليه فائض السكان.

ثمة نفور من الاعتراف بهذا فى معظم المؤتمرات الدولية سواء سياسية أو أخلاقية أو دينية. ويتأزم الأمر حين نلاحظ أن الانفجار السكانى يحدث فى البلدان النامية وليس فى العالم المتقدم. إن الفقراء يعتبرون الأطفال أهم موارد الرزق الذى هو أصلاً شحيح وموارده محدودة، وارتفاع نسبة وفيات الأطفال يدفعهم لإنجاب الكثيرين منهم لتبقى لهم ذرية فى أى حال. إن تنظيم النسل وتحديد يواجه صعوبات فى المجتمعات المتخلفة ويتطلب مسبقاً مستوى معيشة مرتفعاً.

وثمة أيضاً اعتبارات أخلاقية، الناس يعتبرون الإنجاب مسألة خصوصية حميمة

وتحديدها والتدخل فيها قيد غير مقبول على الحرية الشخصية جداً. إن التوتر بين حقوق الأفراد وبين شروط الخير العام للمجتمع يجعل هذه المسألة ضاغطة إلى أبعد الحدود.

أما من الناحية الدينية، فتنشأ المشكلة عن اختلاف التأويلات اللاهوتية لطبيعة العلاقة الجنسية وأهدافها. وحين أعلن البابا أن وسائل منع الحمل غير مرغوبة سبب هذا مشاكل كثيرة، ليس فقط في العالم الكاثوليكي بل في مجمل العالم المسيحي، ورأى البعض إن القساوسة الكاثوليك لا يلمسون خطورة هذه المشكلة.

وأيضاً كان الأمر، لا مندوحة البتة عن كبح جماح الانفجار السكاني، سواء بتخطيطات قد تكون أحياناً مؤلمة، أو عن طريق موقف إنساني مُتساند ومتشارك مع الطبيعة.

البعض يرى أنه لاداعي للقلق على أساس فرض جايا، وهو فرض طرحه جيمس لافلوك J. Lovelock، يشير إلى أنظمة شبه مستقرة تعمل دائماً في نطاق الأرض لتصون درجة مدهشة من التوازن في الظروف الضرورية للحياة على الرغم من كل التقلبات، وعلى مدى مئات الملايين من السنين، فتحفظ مثلاً نسبة الأكسجين في الغلاف الجوي أو متوسط الضغط الجوي أو درجة ملوحة ماء البحر... الخ. بعض هذه الأنظمة لانفهمها تماماً لكنها جميعاً عاملة وفاعلة. ويقيم لافلوك ماثلة سطحية مبتدلة بين تكامل الأنظمة في الأرض وتكامل الأنظمة في الكائن الحي.

والواقع أن الأرض لا هي آلة ميكانيكية ولا هي تبدو ككائن حي، إنها تبدو ككيان قادر على تنظيم ذاته وليس لدينا اسم مناسب له. ولكن ليس من الحكمة البتة أن نعتمد على الماضي كمرشد للحاضر، فإذا لاقت المشاكل البيئية في الماضي حلاً طبيعياً، فلاشئ يضمن أن المشاكل البيئية في المستقبل سوف تلاقى حلولاً طبيعية، خصوصاً وأن عمر الوجود الإنساني قصير جداً ولا يشكل نسبة يعتد بها. وفرض جايا مفرط التفاؤل، وقد يدمره السلوك الإنساني بإزاء الطبيعة بعد أن تعاضم شأنه. لا ينبغي الثقة الزائدة في حلول طبيعية أو تلقائية. وأيضاً لا ينبغي التشاؤم المفرط، فنحن نعرف الآن أنظمة محددة عاملة على مثل هذا التوازن البيئي، مثلاً الدفء الذي يطرأ على الكرة الأرضية يرفع درجة حرارة البحار فيزيد من عملية التبخر وتشكل سحب أكثر كثافة، تمتص جزءاً من الحرارة الآتية من الشمس، وبالتالي ينتج توازن عام في درجة الحرارة.

وأمثال هذه المعارف تجعلنا نستطيع التنبؤ بأحوال الأرض، ولكن أيضاً لا ينبغي

**جايا : Gaia**

الاعتماد التام على هذه التنبؤات . إن التنبؤات بالعمر الافتراضى للمخرون من الوقود الحفرى - مثلاً - كثيراً ما كانت خاطئة . فى عام ١٩٠٨ جاء أحد مستشارى تيودور روزفلت وأخبره أن الولايات المتحدة الأمريكية ستستهلك مخزونها من فحم الأنتراسيت خلال ثلاثين عاماً ومن أشجار الغابات خلال خمسين عاماً . ولكن الاكتشافات الجيولوجية من ناحية، وتغير أنماط استهلاك الوقود والطاقة من الناحية الأخرى أطاحت بهذا التنبؤ .

والخلاصة أن التفاؤل المفرط والتشاؤم المفرط كليهما خطأ، على أن نضع فى الاعتبار صعوبة التنبؤ الدقيق بما سيكون عليه الوضع فى المستقبل .

## مناظرة أخلاقية :

معظم التحذيرات البيئية الآن صاحبة أكثر مما ينبغى . والدعاوى بشأن بعض التطورات الحديثة، كالقوة النووية أو الهندسية الوراثية أو الأساليب المستحدثة للزراعة، إما تزعم أنها الأفضل طراً، أو الأسوأ على الإطلاق . وهذه الاستقطابات المتطرفة لاتفيد كثيراً إذا رُمننا مهمة محددة هى «العناية بالخلق»، فهذه المشاكل لاتقبل الطرح التبسيطى الأحادى الجانب، وثمة دائماً قدر من المكسب وقدر من الخسارة فى كل وضع . ومجتمعاتنا لاتشجع المناظرات العقلانية للتقدير الدقيق، وسائل الإعلام دائماً منحازة . إذا كانت القوة النووية هدفاً تسعى إليه الدولة ستتكسر الإذاعات المسموعة والمرئية لحل مشكلة النفايات النووية، ولن تنحاز لأحزاب «الخضر» أو تنظم حواراً متكافئاً بين الجانبين . وكما أشار فيلسوف الأخلاق ألسدير ماكينتير - A. MacIntyre، فإن مايشهده المجتمع المعاصر من غياب الاتفاق على أسس أخلاقية متعارف عليها لاتخاذ القرارات جعل المناظرات الأخلاقية ترتد إلى قرارات عالية النبرة للآراء الفردية . ويعلم بولكين هورن أن كثيرين فى العالم الغربى لن يتفقوا معه فى النظر إلى الكرة الأرضية بوصفها خلقاً لله واتخاذ هذا أساساً لمعالجة مشكلة البيئة، ولكنه يعتقد أن المسيحية يجب أن تتآزر مع الأديان الأخرى الكبرى للخروج بأسس دينية مشتركة كأساس أخلاقى للعناية بعالمنا، نعلها تتمثل فى احترام الإنسانية جمعاء للحياة وللعالم الذى نشأنا عنه . إننا فى حاجة للتشارك فى مفهوم متفق عليه للخير العام، يكون رحيباً بما يكفى لاستيعاب العالم الطبيعى ومستقبل الأجيال القادمة .

## مساهمة العلم :

للعلم والعلماء دور لا مندوحة عنه فى هذا، لاسيما أن العلم يتقاناته (تكنولوجياه) هو المدان الأول فى الجرائم البيئية . والحق أن العلم يهبنا قوة قد نستخدمها للخير أو للشر . فمن الصواب أن نكافح استخدام الهندسة الوراثية من أجل اليوجينيا - أى من أجل تحديد الخصائص الوراثية للبشر وفقاً لتصور مسبق، ومن الصواب أيضاً أن نشجعها من أجل القضاء على الأمراض الوراثية الخطيرة .

وهذا لا يعني أن العلماء لأشان لهم بالموضوع، والمجتمع هو الذى يحدد لهم ما يجب وما لا يجب. العلم ليس متحرراً من القيمة بالمعنى الذى يجعله محايداً بشأن استغلال مكتشفاته. العلماء والخبراء لهم حدودهم الأخلاقية بوصفهم بشراً، فضلاً عن أنهم الأدرى بالموضوع. لكنهم من الناحية الأخرى ينساقون وراء استئناف مسار الأبحاث وتطبيقاتها، وكما أشار الفيزيائي البارز أوبنهايم «حلاوة الإنجاز العلمى» هى التى دفعت إلى مواصلة الجهد ليصلوا فى النهاية إلى تفجير القنبلة الذرية - التى لا ينكر بولكين هورن أنها مشروع له ما يبرره - بصرف النظر عن خطورتها. صحيح أن العالم الشرير ذا الأهداف الخبيثة أو العالم الذى يندفع وراء إنجاز البحث مهما كان الثمن على شاكلة دكتور جاىكل (ومستر هايد) هى أمثلة بالغة الندرة؛ إلا أنه يجب فى النهاية معالجة الأمر فى سياق أرحب يضم العلماء والخبراء والمعينين به فى المجتمع بأسره. خصوصاً وأنه ينبغى تحديد الملائم وغير الملائم من التقانة (التكنولوجيا)، قبل الشروع فى البحث المؤدى إليها وليس بعد إنجازها.

لكى نصل إلى القرارات الحكيمة، نحن فى حاجة إلى التواصل الدائم بين العلماء وبين المجتمع الأرحب. ويجب أن يكون العلماء شديدي العناية بتقدير المكاسب والخسائر وراء كل خطوة ينجزونها. ولاتغيب العوامل الاقتصادية عن مثل هذه القرارات.

هناك دائماً إمكانية لأن يهبنا التقدم العلمى حلولاً جديدة وناجحة لمشاكل قديمة وصعبة. ومشكلة الطاقة من أخطر المشاكل الملحة التى تساهم بنصيب الأسد فى تدمير البيئة وتلويثها. إن البشر فى احتياج متزايد لمصادر أكثر للطاقة، وسوف يتضاعف هذا الاحتياج مع التقدم الذى ترنو إليه الدول النامية، وعلى العلم أن يجد الخطى فى أبحاث الاندماج النووى؛ لأنه حل مثالى يهبنا طاقة وفيرة لاينجم عنها تلوث للبيئة. وأخيراً، فإن صعوبة الوصول إلى أحكام صائبة فى هذا الأمر توازيها صعوبة تنفيذ هذه الأحكام. وهاهنا دور السياسات.

## خاتمة المطاف :

إنه من العسير الوصول إلى محصلة حاسمة لمثل هذا الفصل الذى يعالج موقفاً شديد التعقيد والتداخل فى صميمه. إن عناية الإنسان بالطبيعة المخلوقة وتفاعله المستول معها هو هدف حيوى للغاية بيد أنه عسير البلوغ، واستراتيجيات تحقيقه محاكاة باللبال. المعرفة أساس لامحيص عنه لكل تفكير بيئى، ويتقدم العلم كمساهم فعال؛ وإلا فنحن نتلمس طريقاً فى الظلام. التغيير حتمى، وينبغى أن نحاول التنبؤ به وتقديره، وترشيده قدر استطاعتنا. والقرارات فى هذا الأمر تعتمد على القيمة والواقع

على السواء . إن انفصال الإنسان عن الطبيعة . فيما يرى بولكين هورن . مسألة خطيرة تجعله قاسياً ومدمراً لها ولذاته . والبشر في حاجة دوماً لإظهار ما أسماه ألبرت شفيتر A. Schweitzer «تجيل الحياة» . ودوناً عن البشر أجمعين، يتقدم العلماء بحس عميق من الدهشة المنبثقة عن مواجهتهم لنظام العالم الفيزيقي وبمعرفة أعمق بهذا العالم، ليلعبوا دوراً بارزاً في دفع المجتمع؛ لكي يسلك بإزاء الطبيعة سلوكاً مسؤولاً للحفاظ على مقدراتها الراهنة ولصون حقوق الأجيال القادمة فيها .